

الأدب الفيدي

الدكتور: محسن العابد
مدير المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية

الأدب الفيدي:

- 1 - المظهر الحضاري لعصر الفيدا
 - 2 - أسفار الفيدا الأربعة
 - 3 - نماذج من الأدب الفيدي حول:
 - (1) تعدد الآلهة، (2) الوجدانية، (3) الخليفة، (4) أناشيد أخلاقية واجتماعية، (5) أناشيد الشك والهزء بالآلهة.
 - 4 - البرهمانا والأوبانيشاد
 - 1 - المظهر الحضاري لعصر الفيدا.
- منذ أقدم العصور كان الجهد الأساسي للهندوس جيلا بعد جيل موجها إلى حفظ أسفار الفيدا شفويا ثم كتابة، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة. وقد وصلت إلينا نتيجة جهدهم الدائب في صورة كتاب، أو بالأحرى مجموعة أسفار، كان أعظم عمل أدبي للشعب الهندي في العصور القديمة، وهي تعتبر عند الهندوس من نوع الأدب «السروتي»، أي الموحاة على الكهان، ومفردها كاهن (Rchi) (1).

لا يزال علمنا بالأدب الفيدي بعيدا عن التمام فنحن نجهل العدد الأصلي لاسفار الفيدا. وكل ما وصل إلينا أربع مجموعات وهي:

* انظر الفصل الأول في : مجلة جامعة الزيتونة، عدد 1، 1992، ص 27 وما بعد.

1 - يزعم الهندوس: ان الانسان، يتكامل بالتناسخ المتكرر، والأعمال الصالحة، حتى ينتهي به الأمر إلى الاندماج في ذات الله. ومن اندمج في الله أصبح الها ولذا فانهم لا يرون لزوما للنبوة، ولا لاية وسيلة بين العبد وربه، إلا بالأعمال الصالحة (انظر كتاب: منوسمرتي. ترجمة احسان حقي ط. أولى، دون تاريخ ص. 8).

1 - رج فيدا، 2 - ياجور فيدا، 3 - سامافيدا، 4 - أثارافيدا، وتحتوي كل واحدة من هذه المجموعات على أربعة اقسام «سمهتا»:

- المانتراس وهي مجموعة من الاناشيد والصلوات والبركات وقواعد الاضاحي وانشيد جماعية.

2 - برهماناس، وهي كتابات نثرية تبحث في مغزى الشعائر والطقوس والاحتفالات التي لها علاقة بالأضاحي والذبائح.

3 - ارياناكس - نصوص الغابة، وتوجد في براهماناس كما توجد مستقلة.

4 - الأوبانيشاد، فهي احتجاج فلسفي قوي ضد ديانات البراهماناس(2). وهنا يعترضنا اشكال يستوجب علينا توضيحه، وهو: اننا نقرأ في قانون (مانو)(3)، الباب الأول المتعلق بتفسير قصة خلق العالم فقرة 23، ما يلي: وخلق (برهما)(4)، من النار رج فيدا، ومن الهواء ياجورفيدا، ومن الشمس سامافيدا، اتماما للعبادة(5).

نستخلص من هذه الفقرة ان الفيدات المعتبرة اكثر من غيرها عند فقهاء الهندوسية هي الاقسام الثلاثة الاولى، بينما أسفار الفيدا اربعة، وقيل انها خمسة. ويبدو ان الهنادكة، اتفقوا على ثلاثة منها، واهملوا الرابع، وهو أثارافيدا، وانكروا الخامس كما هو الحال عند اليهود والمسيحيين الذين انكروا عدة اسفار من الكتاب المقدس واعتبروها منحولة.

وتعني كلمة «فيدا» المعرفة، وهي تستعمل كمفرد، وكجمع «فيدات»، لأنها تحتوي على اربعة اسفار مقدسة. وهي بمثابة سجل فكري، وتاريخي وحضاري للشعوب الهندية التي تمازجت مع بعضها البعض. وهي تحتوي على تاريخ الخليفة، والآلهة. وعلى التأملات الفكرية ازاء قوى الطبيعة الكونية وغيرها من العبادات والطقوس والانشيد الدينية، والمهن الاجتماعية. فكان مضمون الرج فيدا، معرفة التراتيل Savoir des Hymnes

2 - انظر المحور الرابع من هذا الفصل.

3 - انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة فيما بعد.

4 - يمثل براهما في المعتقد الهندوسي احد الآلهة الثلاثة المكونة للثالوث الهندوسي وهي: برهما، وفشنو، وشيفا. فبرهما يمثل صفة الخالق، وفشنو صفة الحماية، وصفة الابادة تمثلت في شيفا. وهذه الاوصاف هي في واقع امرها صفات لاله براماتا، سيد الآلهة، واعظمهم على الاطلاق. فهو واجب الوجود. فهو برهما من حيث هو الخالق، وهو فشنو من حيث يتعهد المخلوقات في حياتها، وهو شيفا من حيث يبيدها ويفنيها. ويزعم الهندوس ان الاله براماتا، يقيم في وسط الشمس على حصير شبيه من حيث شكله، بزه النيلوفر، ذهبي اللون، وعلى رأسه، تاج من الجواهر. وفي نحره، عقد مثل ذلك، وله اربع ايد دليلا على القوة والسلطان، وتقريب الامور المعنوية، بعرضها بشكل المادة، وهو امر كثير الاستعمال في الكتب المقدسة، وغيرها. (نقلا عن كتاب منوسمرتي، ص. 9 وما بعد).

5 - المصدر السابق ص. 17.

وياجور فيدا معرفة صيغ ذبيحة القربان *Savoir des Formules Sacrificielles*، وسامافيدا، معرفة الاناشيد *Savoir des Formulet magiques* (6). ونلاحظ في هذه المحاور التي تضمنها الأدب الفيدي. ان عصر الفيدا هو عصر الاسطورة والرؤى السحرية الغامضة لقوى الطبيعة ومظاهر الكون. ولهذا لا يمكن تسمية هذه الفترة التاريخية، بالنسبة للهندوسية، بعصر الابداع الفلسفي. وذلك لان الدين والفلسفة والاسطورة والفكر التحمت ببعضها، وعانت نزاعا وانقسامًا شديدا وستمر (7). الا انها في جملتها تعبر عن فكر الانسان الذي يعيش في المجتمع الرعوي والبيئة القاسية، وقيم الحضارة الريفية عموما.

2- اسفار الفيدا الاربعة:

الرج - فيدا أي الفيدا الملكية، وهي اهم الاسفار الفيديّة، انها اساسية بالنسبة للعقيدة الهندوسية. فكلمة رج تعني مقطع شعري، وفيدا، المعرفة، أي معرفة التراتيل المقدسة. ويسمى Griffith، حكمة المقاطع الشعرية *Sagesse of the Strophes* (8). كانت تسمى قبل نعتها بهذا الاسم بـ «رتشه Rachah أي المدايح. والرج - فيدا، هي كلمة سنسكريتية، تعني الفيدا النارية أو المنسوبة الى النار وهي قسمان:

أحدهما أدعية، وصلوات وأوراد منظومة تتلى في بعض المناسبات نثرا وثانيهما، يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية ويسمى براهمانا.

انها تتضمن 1017 (9)، وقيل 1028 (10) سوكتا *Sukta* أي انشودة دينية تحمل كل منها اسم الحكيم أو العارف (رشي *Rchi*) الذي يدعي انه المؤلف (11).

وتتألف هذه الاناشيد من مقطوعات قوام الواحدة منها اربعة ابيات عادة، ويتكون البيت الواحد من خمسة مقاطع او ثمانية او احد عشر، وليس فيه مراعاة للوزن الا في المقاطع الاربعة الأخيرة، فيراعي فيها الوزن

Antoine Anwander, *Les Religions de l'humanité*, trad, Fr, ed Payot Paris 1955, p. II - 6
7

7 - د. سرفبالي، الفكر الفلسفي الهندي ص. 8

8 - أنه ترجم كل اناشيد الرج - فيدا من السنسكريتية الى الانكليزية في جزئين تحت عنوان: *Hymns of the Rig - Veda*, Bénarès (E. j. Lazarus) 2 ed 1896 - 1897

8 - مكرر، انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. مجلة عالم المعرفة عدد 173 ص 138، هامش (1).

9 - Charles, S. Braden نفس المصدر ص. 68.

F. Tomlin, *les Grands philosophes de l'Orient*, Trad. fr. Payot, Paris 1952, P. 157 - 10

11 - د. علي زيعور، الفلسفات الهندية ط. الاولى 1980 دار الاندلس، بيروت ص. 105.

عادة(12). وهي ليست من عمل شخص واحد، بل شارك في وضعها العديد من الاشخاص، فرادى او مجموعات في فترات تاريخية متباعدة، لا نعرف حدودها الزمنية بالضبط. وظلت مدة طويلة تردد اناشيدهما مشافهة. وتلاوتها عن ظهر قلب، كانت في حد ذاتها فعلا دينيا(13).

لا نعرف اللغة التي كان يتكلمها هؤلاء، قبل ظهور اللغة السانسكريتية التي ظهرت بظهور القبائل الآرية في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد ومن المحتمل ان الدرافيديين سكان الهند القدماء كانت لهم لغة تعرف باللغة الدرافيدية. اذ لاحظ بعض الباحثين وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان، اي اللغة البراهوي Brahu. ويؤدي بنا هذا الرأي الى الاعتقاد بوجود لغة محلية قديمة قبل مجيء الآريين الى الهند.

لا ننسى ان الناس في العصر الفيدي لم يستخدموا في كلامهم لغة واحدة، بل لغات، فلم يكن للهند في أي عصر من عصورها لغة واحدة، بل كان لكل قبيلة لهجتها الخاصة(14).

والمهم أن اللغة السانسكريتية التي كتبت بها اسفار الفيدا والملاحم تحتوي بالفعل على علامات اللغة الأدبية الكلاسيكية التي لا يستخدمها الا العلماء والكهنة، وان كلمة «سنسكريتي» نفسها تعني «المعدة» أو الخالصة او الكاملة أو المقدسة(15).

ولدينا من الأدلة والبراهين التاريخية القطعية، ما يحملنا على الاعتقاد بأن قسما كبيرا من نصوص الفيدا قد كانت موجودة ومتداولة بين القبائل الهندية قبل مجيء الآريين. ويعود تاريخها تقريبا الى سنة 5000 قبل الميلاد. ويبدو ان العادة الدينية التي كانت متبعة في المجتمع الهندوسي القديم هي: أن كل عائلة او قبيلة كانت تعقد في داخلها احتفالات دينية في مناسبات معينة، شأنها في ذلك شأن الاسرة التاريخية، اي قبل ظهور نظام «دولة المدينة» او الامبراطورية السياسية فيما بعد.

ولذا والحقيقة هذه، أن بداية نشأة تلك التراتيل الفيدية كانت قد نمت داخل العائلة. فكان الأب، قديما، يقوم مقام الكاهن في كل ما يتعلق بشؤون العبادة. ثم ظهرت فيما بعد طبقة الكهان تدريجيا، واستولت على كل مراسم الاحتفالات الدينية. ثم اضافت الكثير من الاناشيد والتراتيل الدينية لاستعمالها في الحفلات الدينية. ومن الضروري جدا ان نلاحظ هنا ان

12 - ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، ج. 3، ط. 2 القاهرة ص.

13 - F. Tomlin نفس المصدر ص. 157.

14 - ول ديورانت، نفس المصدر ص. 37.

15 - المصدر السابق نفس الصفحة.

البعض من اناشيد الرج فيدا كانت من وضع رؤساء عائلات هندية قديمة. لقد أفضحت لنا الدراسات المعاصرة حول الأدب الفيدي، ان «رج - فيدا» احتوت على سبع مجموعات من الاناشيد الدينية كانت من تأليف سبع عائلات هندوسية وهي:

Atri, Vamadeva, vicvamiṭra, Cṛtsamada, Kanva, Vasishghat, Bharadvaja

يمكن ان نعتبر هذه الاسماء القبلية كمدارس شعرية ونثرية ساهمت مساهمة اساسية في وضع بناء النصوص الفيديّة حسب معتقداتها وأحاسيسها نحو مظاهر الكائنات الطبيعية وانعكاسها على الانسان آنذاك. ومما ينير لنا هذا الرأي بأكثر وضوح العدد الكبير من الاناشيد الدينية التي ملأت اسفار «رج فيدا»، وخاصة السفر الثاني والثالث. والرابع والخامس والسادس والسابع منها. وهي اناشيد كلها ابتهالات مدحية مرفوعة للآلهة التي جلبتها معها القبائل الآرية، ولا سيما الإله اندرا، الذي وصف بصفات الإلاه المدمر والمحارب والغازي. وخاصة للقبائل الدرافيدية المناوئة للقبائل الآرية، وهو الحامي ايضا للانسان الآري من كل الكوارث الطبيعية كالجفاف، وقلة المرعى للمواشي. وهو المصارع كذلك للشيطان (Vṛtra: قوى الشر) الذي حبس البقرة، آلهة السماء او السحاب في احدى الكهوف، حتى لا تنزل المطر كما نقرأ في تلك الاناشيد الدينية ابتهالات وصلوات للآلهة مثل أجنبي آلهة النار. وفارونا إله العدل، وحارس النظام الأخلاقي، وصديق الاله اندرا، وتراتيل للاله فشنو، حافظ الكون، الذي يجتاز الكون بثلاث خطوات الفضاء السماوي. وسوريا، الآه الشمس، وأوشاس الاله الفجر وغيرهم من آلهة الطبيعة وهي كثيرة. بحيث ان اسفار رج - فيدا تناولت كل مظاهر الطبيعة، مكونة منها مجتمعا كونيا منظما، لها جميع الاحاسيس والانفعالات البشرية (17)، مثلما هو الحال تماما في الميثولوجية البابلية، التي وقفت عند هذا الحد من التفكير الديني. أي انها لم تتطور من التعددية الى الوحدانية كما كان الشأن في المعتقد الهندوسي. الذي نجد في مراحلها الاولى عبادة مظاهر الطبيعة، والقوى الكونية، التي تؤثر في سلوك الانسان مباشرة، وفي قطعانه من الماشية، ثم نلاحظ في المرحلة الثانية المعروفة بالابانيشاد من تاريخ الادب الفيدي تطورا نحو الوحدانية، ارتقى فيها الفكر الديني الى درجة اسمى، ولاح له وراء تلك القوى الكونية ما هو اقوى منها، حتى وصل اخيرا الى التوحيد. فكانت التراتيل الدينية في هذه المرحلة منسوجة بحيث تغطي مخاوف الحياة والجوع، وتخدم مساعي الفرد والجماعة

16 - Charles S. Braden نفس المصدر ص. 71

17 - F. Tomlin نفس المصدر ص. 158.

للاطمئنان وحل المشكلات. ثم تطورت المفاهيم الدينية حتى بلغت مستوى رفيعا من التجريد(18).

ونلاحظ ايضا في هذه المرحلة عدة تساؤلات فكرية توجي للقارئ بأن الانسان الهندوسي بدأ يتشكك في تلك الالهة الكونية، منتهيا بنتيجة: ان تلك الالهة ربما لم تكن سابقة في الوجود من العالم، وإنما هي نتاج كائن روحي علوي خفي أوجد نفسه بنفسه(19) وسنعرض في الفقرة الثالثة من هذا الفصل بعض نماذج من الأدب الفيدي. وسنلمس فيها الأثر الواضح لهذا التطور العقدي الهندوسي.

أما الجزء التاسع من رج - فيدا، كان خاصا بالتراتيل الدينية المتعلقة بالاله «سوما». وهو الشراب المقدس(20) للاله اندار وغيره: «لله هذا الشراب، لانه كان سببا لخلود الالهة، وهو الشراب الذي اشعل الشمس، وانار النجوم. وهو ايضا صنو الضحية، ورفيقها الملازم لها. وكانت الأم في الاسرة الهندوسية قديما هي التي تجمع على ضوء القمر الازهار من سفوح الجبال، لتستخرج منها بدقة، وبتخمير بطيء شراب السوما المقدس. والاب هو الذي ينضح الضحية بهذا الشراب. فتزداد النار (الاله اجني) اشتعالا بشراب السوما الروحاني بعد ان تكاد تنطفئ، وكأن أجني يبدو بذلك أشد قوة وأسطع نورا(21). وهذه فقرة من إحدى التراتيل الفيدي توضح لنا القوى الروحية لشراب السوما.

«عظموا بتليد الأناشيد ذلك الاله النقي الذي يبدو لكم بالاعمال المقدسة الممجدة للآلهة».

«هو ينصب على خرقة من صوف ليصفي، هو سند العالم، هو ملاك صلاة الفجر الذي يسبح الحكماء بحمده. يستقر السوما الذي هو عين الزكاة ومنبع السعادة بآنية القربان، ويبدو نائرا للدعاء نثر الثور للقاح في البقر(22).

وكلمة أخيرة موجزة نختم بها قسم رج - فيدا هي: أن التراتيل الدينية التي تضمنتها اسفار رج - فيدا العشرة، موجهة لآلهة عديدة متباينة. فالربع من تلك الأناشيد يحتله الاله اندار وزوجته انداراني. و200 انشودة خاصة بالاله أجني، وواحد وعشرون ترتيلة من متعلقات الالهة أوشاس، الهة الفجر، وهي إحدى الآلهة القليلة التي تميزت بسمات استقلالية خاصة بها.

18 - د. علي زيعور، نفس المصدر ص. 111.

19 - انظر الحور الثالث من هذا الفصل

20 - انظر هامش 39، الفصل الاول من هذه الدراسة. نشر بمجلة جامعة الزيتونة - عدد 1

21 - د. غوستاف لويون، حضارة الهند. ترجمة عادل زعير ط. 1. 1948 مصر ص. 264.

22 - المصدر السابق ص. 265.

وجزء كبيرة من تلك الاناشيد موجهة الى الاله رودار إله الدمار، والى الآلهة يافا إله الاموات، وبقية التراتيل تخص الآلهة الشمسية، مثل فشنو، وسوريا، وبيشان وميترا التي وقعت ممارسة عبادتها ايضا في العقيدة الزرادشتية الفارسية تحت اسم الآلة ميترا (إله النور)، أحد مساعدي الآلهة أهورامازدا، رب الحكمة.

وهكذا تبدو لنا الرج - فيدا أهم جزء من الأدب الفيدي. وهي المصدر الاساسي الذي تنحدر منه محاور الاجزاء الأخرى، وخاصة الساما فيدا وياجور فيدا، أو السمهيتا كما يعبر عنها. فان اناشيدهما قد ظهرت مع تطور العبادة الهندوسية. وتكمن فائدتهما الدينية في ابراز طبيعة العبادة الفيدي. وهما الوثيقتان الاساسيتان اللتان تطلعنا على الطقوس الكهنوتية. بحيث يستطيع الدارس لهما التعرف على نظام الكهانة وتطوره، معرفة دقيقة ومحددة. وهو نظام قد نما وتدرج من رب العائلة الى مجمع كهنوتي فيما بعد. اذ كان في البداية كاهن واحد هو الذي يقوم بجميع مراسم الطقوس الدينية، فتارة هو الذي يقوم مقام المنشد (Udgatr) اثناء تقديم ضحية السوما، واخرى هو الذي يقوم مقام المضحى (Hotr) عند تقديم ضحية الدم، وفي نفس الوقت هو بذاته الذي ينجز بقية الشعائر الدينية.

ولما تعددت مراسم العبادة، اصبح من الضروري الالتجاء الى مساعد ليقوم بالأعمال اليدوية التي تتطلبها شعيرة تقديم القربان. فتكونت من هناك ثلاثة طبقات من الكهنة وهي: طبقة الـ (Udgatr) والـ (Hotr) والمساعدون (Adhvayu). فكانت الاناشيد التي تضمنتها السا - فيدا خاصة بطبقة (Udgatr). وهذا مع الملاحظة، ان كل اغاني هذا القسم، التي يتجاوز عددها 1500 ترتيلة، قد اخذت مباشرة من اسفار رج - فيدا، باستثناء 75 قطعة شعرية أو أنشودة كانت خارجة عنها.

وكما أشرنا سابقا أن الساما - فيدا هي الفيديا الموسيقية المخصصة لتثقيف طبقة الكهان (Udgatr) وهي بمثابة سفر الاغاني والمدائح. احتوى الجزء الاول منها (Arcika) على 585 مقطوعة شعرية، كل مقطع منها ينشد بلحن خاص. وكانت تلك الالحان في القديم تلقن شفاهيا ثم صارت في فترة التدوين مصاحبة للكلمات.

واحتوى الجزء الثاني منها (Uttararcia) على 1225 بيت شعر، قوام المقطع الواحد ثلاثة أبيات شعر عادة، نظم كل واحدة من تلك المقاطع حسب ترتيب اهمية القربان المقدمة للآلهة (23).

واما قسم ياجور - فيدا فهو من مشمولات الكاهن المساعد (Adhvaryu) الذي يقوم بالاعمال اليدوية، الخاصة بشعائر تقديم القرбан. منذ القديم، كان من مهمة الكاهن المساعد ان يردّد بعض التعاويذ المناسبة اثناء تقديم واحضار الضحية. وهي كلمات ذات معان سحرية لطرد الشياطين. وهناك تراويل تعبدية تتلى جهرا يقوم بها الكاهن (HOTR) المكلف بتذكية الضحية. ونقرأ في ياجور - فيدا ايضا، بعض المدايح والابتهالات، استخرجت جميعها من رج - فيدا. كما انها اشتملت على بعض القواعد العقدية، اخذت مباشرة من ادب البراهمانا. ولقد ترجمت تلك الاناشيد الى ترجمات متباينة بتباين المدارس والفرق الدينية المنتمية اليها. فترتب عن ذلك انقسام ياجور - فيدا الى قسمين: ياجور فيدا الأسود وياجور فيدا الأبيض. لا نعرف السبب الاساسي لمنشأ هذا التقسيم، الا انه يبدو، ان المسألة تتعلق بطبيعة المجتمع الهندوسي الخليط من بعض الفئات البشرية.

والمهم ان ياجور - فيدا، تحتوي على أربعين مقطوعة شعرية، منها خمس وعشرون الاولى، قديمة جدا، وهي من متعلقات القربان الهامة، مثل القربان المقدم للقمر وللسوما. اما الخمس عشرة مقطوعة الباقية فانها حديثة العهد، وقعت اضافتها كتكملة لسفر ياجور - فيدا. الا انه من الواضح، أنها لا تخلو من الأهمية بالنسبة للأدب الفيدي الهندوسي.

أما القسم الرابع والأخير من الأدب الفيدي يتمثل في سفر أثارفايدا. ويضم حوالي 800 ترنيمة ترنيمة، يختلط السحر فيها بالحكم، والتعاويذ، وشعوذات مختلفة، وممارسات غامضة بدائية لحماية النفس من الشياطين والاعداء. وهي في جملتها هامة ومفيدة. اذ تطلعننا على الممارسات الفكرية الاولى للمعتقد الهندوسي. فمثلا: ان التمايم والتعاويذ والاحجية تقوم مقاوم الادوية لعلاج الامراض الباطنية والخارجية، التي تظهر اعرضها على جسم الانسان. ومنها ما هو صالح - حسب زعمهم - للحمي، ومرض الاسنان، ولدغ الافعى والجنون الخ. وفيها تعاويذ سحرية خاصة لتقارب الأزواج وتحابهم او لتخليص الزوجة من منافسة فيها الخ..

3 - نماذج من الأدب الفيدي حول:

(1) تعدد الآلهة، (2) الوجدانية، (3) الخليفة، (4) اناشيد اخلاقية واجتماعية، (5) اناشيد الشك والهز بالآلهة.

من الصعب جدا أن نأتي على كل المحاور التي ورد ذكرها في الادب الفيدي. لقد تعددت فيه المواقف والأفكار والميول الاساسية، وتلونت صيغتها الدينية والفلسفية حسب الأغراض والأهداف التي حددتها البيئة الهندية الطبيعية والاجتماعية، حيث افرزت رؤى دينية وفلسفية، وتشريعات اخلاقية معقدة، يصعب ادراكها بسهولة على الاجنبي غير الهندوسي.

والشيء الجوهرى الذي يلاحظه القارئ العادى للأدب الفيدي هو: ان معظم الترانيم والاناشيد التي تضمنها هذا الادب الدينى هي بمثابة دعوات وابتهالات موجهة الى آلهة كونية متعددة في سبيل المحافظة على قطعان الماشية والمحصول وطول العمر عبر عنها الانسان الهندوسى بفطرتة، كما يعبر الطفل ازاء كل ما يرى. فنقرأ مثلاً انشودة يتعجب فيها الانسان الهندوسى، كيف يخرج اللبن الابيض من ابقار حمراء، ونلاحظ في ترنيمة اخرى لماذا لا تسقط الشمس على الارض سقوطاً عمودياً حينما تبدأ في الانحدار، وترنيمة ثالثة تتساءل: كيف أمكن «لمياه الانهار كلها ان تثبت فؤارة الى المحيط فلا تملؤه» الخ....

بحيث القلة القليلة من تلك النصوص الفيديّة، ما يرتفع الى مستوى الادب. بينما عدد ضئيل يبلغ درجة الانشاد في رشاقتها وجمالها (24) والمهم هنا ليس قوة العبارة وجمال الاسلوب. بل الغاية الاساسية التي نهدف اليها من خلال عرضنا لبعض النماذج من تلك الاناشيد الدينية هي معرفة البدايات الاولى للتفكير الدينى عند الهندوسى، وتدرجه من عبادة الكائنات الطبيعية التي تمثل مرحلة البداوة وعدم الاستقرار، ثم ميوله الى التوحيد، عندما تخطى مرحلة البداوة الفطرية وسذاجة التفكير الى مرحلة شبه الاستقرار لفلاحة الارض تربية الماشية. ومن هناك، بدأ يلاحظ مظاهر الجفاف وانحباس المطر الذي أهلك زرع وماشيتة. فتخيّل بتفكيره البسيط آنذاك، ان تلك المظاهر الطبيعية لها نفس الاحاسيس والشعور بالغضب والحب والنقمة التي تخالج الكائن الانساني من حين الى آخر. فتوجه اليها مبتهلاً كأنها كائنات تتصرف من تلقاء نفسها، طالباً منها الحماية والرعاية لحصوله وماشيتة. ثم تبين فيما بعد، عندما نضج تفكيره وتطورت تجربته مع تلك المظاهر الطبيعية انه اخطأ في نظرتة لها. فبدأ يستهزئ بها وبنفسه. وان هناك قوة عليا تتصرف في كل تلك الكائنات، ظلت غامضة عنده ففسرها بتفسيرات متباينة سميت بالآوابانيشادات.

اقتبست هذه النماذج من مصادر ذات أهمية، معتمدة في مجال دراسة الادب الهندوسى المقدس. رجع اصحابها مباشرة الى النصوص الاصلية. والناقل عنهم كان أميناً على ما يبدو من خلال دراسته القيمة منهجاً وموضوعاً (25). ثم ان المترجم عنها من الهندوس وابن العقيدة دما ولحما.

24 - ول ديورانت نفس المصدر ص. 39.

25 - وهي دراسة الدكتور سرفيالي رادكرشنا والدكتور شارلنزمور: الفكر الفلسفي الهندي.

1) أناشيد إلى الإله المتعدد:

إلى اندرا (في الأساس كان اندرا إله العاصفة):

1 - أمدح اندرا ذا البطولة الخارقة. لانه بقوته، فصل الأرض عن الفضاء. وهو الذي ملأ كل شيء بالعمق لكي يساعد الانسان، وتَفُوقَ على الفيضانات والأنهار بعظمته.

3 - انشد له صلاة قدسية، غير متقطعة وجديدة، ولا تباريها صلاة، منسجمة مع الأرض والسماء. اندار النبيل الذي لا يخيب أمل صديق والذي يضع حدودا لكل الكائنات الحية.

4 - انني ارسل الى اندار أناشيدي التي لا تنقطع كالماء الصاعد من اعماق المحيط. اندار، من تتركز الأرض والسماء كمحور لمركبته.

10 - اندار هو الحاكم المطلق على الأرض والسماء، وهو إله المياه والجبال، والحكماء والمزدهرين. اعتمدوا على اندار اثناء الراحة والعمل.

15 - يا اندار الجبار، الق اعداءنا، أو جاناس (ربما هم قبيلة معادية) في ظلام فظيع، واجعل لياليهم نورا ساطعا.

وهنا تحسن الإشارة إلى أن الإله «اندرا» قد برز دوره مع القبائل الآرية الغازية للهند، وحل محل الإله «فارونا Varuna» الذي عرف أيضا باسم «أزورا Asura». كان - قديما - عند السكان الأصليين للهند، يمثل الأخلاق الرفيعة. وهو حارس «الريتة Rita» أو النظام الطبيعي والأخلاقي للكون. وهكذا تخطى الإله «فارونا» قهرا عن مهمامه الأخلاقية للإله الآري «أندرا» الشهباني والعريبيد..

وهذا ربما يفسر لنا التقلبات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الهندوسي منذ القديم. وما كان للقبائل الآرية الرعوية، الغازية لشمال الهند قديما من تأثير على تغيير أخلاقه السلوك الاجتماعي للقبائل «الدرافيديه» الأصلية، الذين لم يتقبلوا بسهولة الانماط الأخلاقية الآرية واستمر الصراع بين الطرفين في صورة حركات اصلاحية دينية تناولتها النصوص المقدسة الهندوسية. ويتضح هذا العداء بين الدرافيديين والآريين في الفقرة 15 اعلاه وغيرها من الأناشيد الدينية التي تضمنتها اسفار القيدا.

* إلى أجني (إله النار):

1 - إني اعظم أجني، مدبر الأضاحي المقدس، الكاهن الأعظم، واعظم من يمنح الكنوز.

3 - بواسطة أجني نزهده ونغني، ونحصل على المجد وعلى بركة الولادة من اصل رفيع.

- 4 - ان أجني يهب الآلهة كل ما يقدم له من تضحيات وعبادة.
 7 - اننا نقترّب منك يوما بعد يوم، أيها الاله الذي تشع في الظلام،
 وبصلاتنا نقدم الاحترام.
 9 - هكذا أظهر، يا أجني، ميلك نحونا كما يظهر الأب ميله لابنه. ابق معنا لكي تحقق سعادتنا.

● ان الكلام عن الإله «أجني» يجرنا حتما للإشارة لاهمية الذهب في نشأة العقيدة الفطرية عند الانسان. اذ كان يعزي اليه عدة خواص سحرية. ان نقرأ في الكتاب القديم المسمى «ساتاباطها برهمانا Satapatha Brahmana ما يفيد، أن الذهب خالد لا يفنى، وأنه ولد من النار، وأنه يجدد نشاط الجنس البشري، ويهب الانسان طولة الحياة والانجاب الكثير. وكان سكان الهند الاصليين القدماء، يعتقدون في أن الذهب هو النواة الاساسية التي نمت منها الاله «أجني». وفي اعتقادهم ايضا، ان الشمس هي التي وهبت الذهب لونه الجميل. هو المحور الذي يربط عالم الناس وعالم الإله. وهو الذي يحمل القرابين والمحركة الى الآلهة.

وهذا مع الملاحظة، ان أهمية الذهب لم تكن مقصورة على العقيدة الهندوسية فحسب، بل نجد آلهة السومريين في العراق قديما يسمون «سادة الذهب». ونجد ايضا حضارة مصر القديمة، ان الإله «رع» الآه الشمس وهو خالق الملوك الاول، ومن ثم جرى في عروقتهم «ماء رع، ذلك الماء الذي هو ذهب الآلهة والآلهات. والذهب هو سائل الشمس المضيء، ومصدر الحياة والقوة. وهو أيضا نفسه آلام الكبرى أو البقرة المقدسة «هاتور» المنتسبة إلى اقليم «النوبة» نسبة الى كلمة «نوب» أي الذهب.

الى فيشنو (الموجود في كل مكان):

1 - إنني اعترف بأعمال فيشنو العظيمة، فيشنوا الذي قاس الابعاد الكونية، الذي، عندما ركز المحطة العليا سار الى المناطق الثلاث، بخطوات كبيرة.

4 - هو الذي بخطواته الواسعة، وهو ممتلئ بالنشوة يزهو في غبطة، وبدون ان يخطئ في سند الوجود، وقسمه إلى أقسام ثلاثة:
 الأرض والفضاء والمخلوقات الحية.

الى سوريا (إله - الشمس):

1 - لينظر الجميع الى الشمس التي، بأشعتها العالية، تظهر الإله الذي يعرف كل المخلوقات المولودة.

- 2 - إن النجوم تفترق عن بعضها وكالّصوص تجتمع معا في الليالي الحالكة عندما تقترب الشمس.
- 4 - ايتها الشمس، يا صانعة النور اترك تسرعين في حركتك ويراك الجميع وتضيئين الفضاء المنير.
- 7 - الافراس السبع التي تجر عربتك، تجلبك الينا، ايها الإله الذي يرى إلى أمد بعيد يا سوريا، ذات الشعر المتلألئ.

الى أوشاس (الفجر):

- 1 - اشرقي علينا واجلبي لنا الازهار، يا أوشاس، بنت الفضاء، اشرقي علينا بمجد عظيم، ايتها الآلهة، سيدة النور، أضيئي علينا بالثورات ايتها الكريمة.
- 2 - هم، الذين يعطوننا الأبقار والأحصنة، الكرماء وواهبوا الثروة، قد اسرعوا ليضيئوا علينا.
- 12 - اجلبي، يا أوشاس، من الفضاء كل الآلهة لكي يشربوا من عصير سوما (شراب الآلهة).
- وامنحينا الأبقار والاحصنة، والقوة لنمدحك، واعطنا قدرة الإبطال.
- 16 - اعطنا الثروة الغزيرة بأشكالها المتعددة، والغذاء الكثير المنعش، واعطنا الجاه والقوة، يا أوشاس القديرة، انت الغنية بالغنائم والثروات.

2- ميول الى التوحيد:

- الى فارونا (رئيس آلهة النظام الطبيعي والأخلاقي).
- 1 - لكي تجعل فارونا يأتي اليك، انشد انشودة الى فرقة ماروتس التي هي احكم منك.
- فازونا هذا يحيي افكار الناس جيدا كما يحيي قطعان الأبقار.
- 2 - هو الذي اوجد الليل والنهار بفنه السحري: هو المرثي للجميع. ان اعزاءه (الليالي التي تبشر بالفجر) وهي تتبع قانونه، قد اعطت لاجله انواع الفجر.
- 6 - انه يغلق هذه المناطق كالرداء، ويديم التأمل في قبائل الآلهة وفي اعمال البشر الفانين.
- ان جميع الآلهة تتبع قانون فارونا.
- وهذا مع الملاحظة، ان فارونا، كان في الاصل يمثل مجموعة من الآلهة ثم اصبح فيما بعد مجموعة من الشياطين تعارض آلهة السماء «ديفار Devas».

الى بورشا (الشخص او الانسان المشخص):

- 1 - كان لبوروثا ألف رأس، وألف عين، وألف قدم. انه حطن الارض من كل الجوانب، ولم يكن بعيدا.
- 4 - ثلاثة أرباعه في السماء وربعه في الارض. هكذا انتشر في كل الاتجاهات خارج ذاته، انه كمن يأكل ولا يأكل.
- 7 - ولد بوروشا في البداية عندما نشرت الأضاحي على العشب. لقد فرحت به الآلهة والسادياس (مجموعة مخلوقات سماوية) والحكماء.
- 12 - البراهمني كان فمه، والمحارب كان ذراعيه، والتاجر والمزارع كانا فخذيه، ومن اقدمه ولدت شودرا (طبقة العبيد)!
- 13 - القمر ولد من روحه، والشمس من عينيه، ومن فمه ولد آجني واندرا ومن لهاته ولد الريح.
- 14 - ومن وسطه ارتفع الفضاء الاوسط، ومن رأسه نبعت السماء، ومن اقدمه الارض، والجهات الاربع من آذانه. هكذا شكلت اوصافه العوالم.

الى الآلهة:

- 1 - دعونا، ببراعة حاذقة، ان نعلن عن اجيال الآلهة، حتى يمكن ان يراها الناس عندما ينشدون هذه الاناشيد في المستقبل.
- 2 - براهمنا سباتي (إله الصلاة) هذا انبثق من نفحة.
- 4 - كل شيء نتج عن القوة المنتجة، المناطق ولدت من الارض. داكاسا ولدت من اديتي، واديي كانت ابنة داكسا (اديي هي اللانهاية او اللامنتهي، داكسا هي القدرة المشخصة بها).
- 6 - وعندما، ايتها الآلهة، وقفتم تمسكون بأيدي بعضكم بعضا. واذ رقصتم، هبت غيمة كثيفة من الغبار من تحت اقدامكم.

انشودة الخليقة:

- 1 - لم يوجد الوجود او اللاوجود عندئذ:
ولم يوجد هواء او فضاء قبله.
ماذا كان مخفيا؟ أين؟ وبحماية من؟
وهل كانت هناك مياه لا يعرف عمقها؟
- 2 - والموت لم يوجد عندئذ ولا الحياة الابدية،
ولم يكن هناك ما يدل على الليل والنهار.
وبقوته الذاتية تنفس الواحد بدون هواء.

- ولا شيء وجد قبل ذاك.
- 3 - الظلام كان مخبأ بالظلام، بادئ الامر،
وبدون حدود مميزة، كان كل هذا مياها.
وما «صار» كان مغطى بالفراغ.
والواحد بقوة الحرارة كان.
- 4 - الرغبة دخلت الوحدة منذ البداية :
وكانت البذرة الاولى، وكان الفكر هو النتاج
والحكماء وهم يفتشون في قلوبهم عن الحكمة،
اكتشفوا حدود الوجود في اللاوجود.
- 6 - من يعرف ما هو الأكيد؟؟ من يعلن عنه؟
متى ولد، ومتى تم هذا الخلق؟
الآلهة ولدت بعد خلق هذا العالم.
و من يستطيع ان يعرف متى وجد؟
- 7 - لا احد يعلم متى الخلق كان،
وفيما اذا كان هو انتجه اولاً:
هو الذي يخطط في السماء العليا.
هو وحده يعرف، أو يمكن ان لا يعرف وهو في غبطته.

اناشيد اخلاقية واجتماعية الى اندرا - سوما:

- 8 - من يتهمني بالبهتان عندما اتبع طريقي بروح نقية؟
- 9 - هؤلاء الذين يدمرون البسيط وبطبيعتهم الشريرة يؤدون المستقيم
ليقدمهم سوما طعاماً للأفعى، أو ليسلمهم الى حضن نرتي (الموت
والهلاك).
- 10 - الشيطان الذي يصمم على أن يؤذي جوهر طعامنا وابقارنا
واحصنتنا واجسادنا.
دمره مع ذريته، وحطم السارق والعدو.
- 11 - ليقض عليه وعلى اولاده: ولتضغط عليه الارض الثلاث وتضعها
تحتة، ولينصرم مجده كل من يسعد لتدميرنا.
- 13 - سوما لا يساعد ولا يرشد الشرير او من يدعي كذبا انه محارباً
انه يذبح الشيطان وكل من يكذب: كلاهما سجينان في شبكة اندرا.

الى دانا (المحبة والكرام):

- 1 - لا تستعمل الآلهة الجوع كعقاب او وسيلة للقتل:
الموت غالباً يصيب الناس القانعين.

ان الكريم المعطي ثروته لا يذوب.
أما البخيل فلا يجد انسانا يرحمه.
5 - الغني يجب ان يعطي المحتاج،
وان يأخذ الحياة القادمة بعين الاعتبار،
لأن الثروة كدواليب العربة وهي تدور،
تأتي الآن لشخص وبعدها لشخص آخر.
7 - المحراث الذي يشق التراب ينتج الغذاء،
من يحرك اقدامه يتم رحلته.
البراهمني الذي يتكلم يكسب أكثر من الذي يصمت،
والصديق الذي يعطي افضل من الذي لا يعطي

الى ياما (حاكم مملكة الارواح الراحلة):

1 - قدم التضحية الى ياما الملك
ابن فيفا سفانت، جامع الشعب،
الذي مر فوق المرتفعات الصخرية الجبارة،
وكشف الممر لكثير من المسافرين.
4 - اجلس يا ياما على هذا العشب المقدس
واتحد مع انجيراس، أبائنا
ليقدم لك الحكماء سحرهم،
وابتهج ايها الملك بتقديمتهم.
13 - الى ياما اعصروا عصير سوما
الى ياما قدموا التقدمة،
الى ياما تذهب التضحية،
المهياة جيدا والتي اعلن عنها أجني.
5 - اناشيد الشك والهزء بالآلهة الى اندرا:
4 - ان الذي ولد كإله رئيسي مليء بالروح
فاق الآلهة الاخرى بالحكمة:
وأمام رجولته الجبارة والمكية
اهتز العالمان: انه ايها الناس اندرا.
5 - عنه، وهو المخيف، سألوا: «اين هو؟»
وعنه، حقا، يقولون: «لا يوجد».
آمنوا به: لانه ايها الناس اندرا.

انشودة تحضير سوما:

- 1 - حقا ان افكارنا متبدلة. ومتبدلة هي طرق الناس. المنظم يريد ان يجد فجوة ويريد الطبيب ان يقع حادث، والكاهن البراهمني يريد ان يجد متعبدا. ابا اندرا طر حول اندرا.
- 3 - أنا شاعر، والدي طبيب، امي تطحن في الطاحونة، بأفكار متنوعة نعزم على الربيع ونسعى وراء كسب البقرات.
- 4 - الحصان يجر مركبة سهلة، وجماعة المحبين يضحكون ويمرحون، والصفدة تريد بركة ماء.

4- البراهمانا والابانيشاد:

نستطيع لفائدة هذا الفصل، ان نتعرض ولو بايجاز الى الشروح والتفاسير التي ظهرت حول الأدب الفيدي، كشروح البراهمانا مثلاً، التي كانت بمثابة توضيحات للشعائر الفيدية، ثم تطورت تدريجياً مع مرور الزمن الى رسائل فلسفية اجتماعية ضد البراهمانا تحت عنوان الأوبانيشاد. وهما مرحلتان هامتان في تاريخ الأدب الفيدي. اذ، بهما ينتهي الأدب الفيدي السروتي الموحى حسب زعمهم.

1- البراهمانا:

من الحقائق الجوهرية التي أقرها علم تاريخ الأديان هي: أن المعتقدات والعبادات مهما يتسامى أمرها، فإنها لا تظل على حال سموها ونقائها. وخاصة العقائد التي تدخل الإنسان في انشاء نصوصها مباشرة كما هو الحال في الهندوسية واليهودية والمسيحية. فان مثل هذه العقائد تتغير من حين الى آخر، بحيث تفقد في نهاية أمرها، ما لها من قيمة دينية وأخلاقية. وتصبح العقيدة في مثل هذا المسار دنسة. وتسودها شعوذة الكهان ورجال الدين المتطفلين، وهم كثيرون في كل زمان ومكان.

وينطبع الدين في آخر الأمر بأسلوب حياة القوم، وبوسائلهم في كسب القوت وبطبيعة أرضهم ومناخهم الفكري والسياسي. وتحل الكارثة ويختل التوازن الاجتماعي، ويصبح دين القوم أفيونا للضعفاء وبسطاء العقل. أردنا من هذه الملاحظة التذكير بما وقع للعقيدة الهندوسية واليهودية والمسيحية فيما بعد من مسخ وتشويه نصوصهم الدينية بالسفه وكثرة التأويل. والعبرة لمن يعتبر؟

ونستطيع الآن بشيء من المقارنة، بين نصوص الأدب البراهماني والأدب اليهودي والمسيحي المقدس لنصل الى نتيجة علمية، تؤيد ما لحنا اليه سابقاً.

كل دراسة مجردة لتلك النصوص توحى للقارئ من اول وهلة باشمئزاز ونفرة من متابعة النص من اوله الى آخره. خذ كلا النصين البرهماني والكتاب المقدس بعديه القديم والجديد، واقرأ ما اوحاه الاله يهوه. واندرأ على هؤلاء. فانك سرعان ما تجد نفسك في غثيان وضيق نفس من كثرة الابتذال الفكري وسماجة الكلمة. وتجد نفسك في النهاية محتاراً من امر تلك العقيدة. وهذه هي الحقيقة التي افصحت عنها الدراسات النقدية المعاصرة لتلك النصوص المقدسة (26). ومما ينير هذا على نحو خاص، يقرر أحد الباحثين المتخصصين في الأدب البراهماني ما يلي: «ان هذه الاسفار البراهمانية المطبوعة في اسلوبها الملل، والمليئة بالرموز الغامضة هي في واقع امرها بعيدة كل البعد عن التفكير السليم، بحيث لا يوجد مثيلها في فشل نظرتها الغنوصية. فهي ليست معقولة بالمرّة» (27).

وفعلا، اننا اذا اخضعنا نصوص الادب البرهماني لفحص تحليلي مجرد وجدنا مضامينها مليئة بالتناقضات، والاطفاء اللامنتطقية.

فهي كتب كهنوتية تماما، توجهت كل محاورها الى القرايين وكيفية تقديمها الى الآلهة. واكتسبت القرايين فيها اهمية كبيرة، بحيث اصبحت هي التي تملي قراراتها على الآلهة، لتوافق على كل الطلبات المقدمة لها من قبل الكهان. وصارت الضحية المقدمة تحمل قوة روحية عجيبة تعجز امامها قدرة الآلهة (28) حسب زعم الكهان البراهمانيين. ولاجل ذلك، كان من الضروري عند تقديم القرايين، ان يقوم الكاهن المكلف بذلك، بطقوس معينة وقواعد دينية دقيقة ومعقدة. كما يجب على الكاهن ان لا يخطئ في اية شعيرة، وان يحترم مكان المذبح والاتجاه الذي يتجهه عند تقديم القربان. وأعد الطقوس البراهمانية هو ما نلاحظه عند تقديم قربان الحصان الى الإله أجني (إله النار). فالحصان عند البرهماني هو القوة الفعالة في الحياة الدنيا، وهو الحاكم والقاهر لكل الكائنات. فهو السريع والموصل كل الطلبات المرفوعة الى الآلهة (29).

26 - فيما يتعلق بنصوص الكتاب المقدس انظر مثلاً:

(1) دراسة سبينور Le Traite Theologico = Politique ترجمها الى العربية حس حنفي 1971.

(2) Adolphe Lods, les Prophètes d'Israël, ed Albin Michel. Paris 1969. 17 -

Eggeling, Julius (traductor du cataphata - Brahmana) Oxford (Sacred Books of the East, vol XII, XXVI, XLI, XLIII, XLIV) 1882 - 1900

27 - Eggeling نفس المصدر ج. 2. المقدمة ص. 9

28 - Winternitz Moriz نفس المصدر ج. 1. ص. 96.

29 - Eggeling Julius نفس المصدر ج. 44. ص 276 وما بعد نقلا عن : نفس المصدر charles braden

وجملة القول ان لأدب البراهماني يعتبر من الوجهة النقدية لتاريخ الفكر الفيدي، مرحلة انتقالية من الهندوسية الاسطورية ذات المعاني المتعددة للكائن المطلق والهندوسية الفلسفية ذات النظرة العميقة الهادئة الى وحدانية الخالق، التي اتضحت رؤيتها بأكثر وضوح في الأدب الاوبانيشادي.

2. الاوبانيشاد:

الاوبانيشاد هي الاجزاء الختامية للفيدا وأساس الفيدانتا، كما يقول ماكس مولر: «هي منهاج وصل فيه التأمل الانساني فمته العليا» (30). والى سنة 1750 م. كانت المعلومات عن الاوبانيشاد تكاد تكون منعدمة عن الفكر المعاصر (31).

وأول مفكر غير هندوسي، تأثر ببعدها الانساني وعمق نظرتها للوجود «هو الفيلسوف شوبنهاور، الذي رأى فيها «عزاء حياته ومماته» معبرا عن ذلك بقوله: «انك لن تجد في الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك اكثر مما تفيدك، وتعلو بك دراسة اسفار الاوبانيشاد، لقد كانت سلواي في حياتي - وستكون سلواي في موتي» (32). ثم يستمر قائلا: كانت اسفار الاوبانيشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر. ففيها مجهود دقيق بذله الانسان، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب، محاولا أن يفهم العقل، وان يفهم العالم وما بينهما من علاقة. ان أسفار الاوبانيشاد قديمة قدم هومر، ولكنها كذلك حديثة حداثة كانط» (33).

ومهما كان اعجاب شوبنهاور بالاوبانيشاد. وشدة تمسكه بأسطورة ملحمة هومر، وفلسفة كانط الى حد الغرور. فهذا لا يجعلنا نتناسى سمو النظرة الدينية نحو الحياة وعلاقتها بالكائن المطلق «الله جل جلاله» التي تضمنها القرآن الكريم، في أسلوب رصين وجذاب تترتاح اليه كل النفوس. والمجال هنا، ليس مجال المقارنة. بل أردنا بهذه الاشارة تلميحاً للاخوان المسيحيين الذين أضناهم بؤس الكنيسة والفقر الروحي العملي، الذي أصيبت به المسيحية، نتيجة انحرافها عن جادة الحق واتباعها اسطورة «شعب الله المختار» لمزعوم. لولا سماجة أسلوب الاناجيل والخطأ اللفظي الذي تسرب إلى الاناجيل عن طريق الترجمة، لما كان شوبنهاور، يرتمي بكل

30 - س. رادكرشنا، نفس المصدر ص. 71.

31 - انظر الفصل الاول من هذه الدراسة. (الوثائق المساعدة على معرفة الهندوسية). نشر بمجلة «جامعة الزيتونة» عدد 1.

32 - ول ديوارنت نفس المصدر ص. 43 نقلا عن:

Maxe Muller, India What can it Teach us London 1919 P. 254.

33 - المصدر السابق ص 43.

ثقله الفلسفي الغربي في احضان الاوبانيشاد كالانسان المرهق الذي اشقاء التعب وراء الحقيقة. والحقيقة على قاب قوسين أو أدنى منه. ولكن هذا لا يمكن ان يفسر بأنه كان مخطئا بل علينا احترام رأيه ووجهة نظره.

لا نعرف بدقة الفترة الزمنية التي وقع فيها تأليف الاوبانيشاد او الاوبانيشادات، الا انها بالتأكيد وجدت قبل البوذية. هناك شبه اتفاق بين الباحثين على ان اقدمها، ربما يعود الى ما بين 800 و500 ق. م. ولا نعرف ايضا من هم مؤلفو الاوبانيشاد، سوى ان بعض العقائد الرئيسية منها لها علاقة مع اسماء بعض الحكماء المشهورين مثل أروني وياجنا فالكيا، وساندليا. ربما انهم كانوا اول من عرضوا المبادئ المتعلقة بهم⁽³⁴⁾.

هناك ست مدارس فلسفية هندوسية مشهورة، كان لها التأثير المباشر على الفكر الاوبانيشاد خاصة، وعلى العقيدة الهندوسية بصفة عامة وهي: الفيدانتا (التي تعني «نهاية الفيدا») نيبايا Nyaya او الواقع المنطقي ميمانسا Mimansa اي البحث المفسر للفيد او المتعلق بالسلوك سمكيا Samkhya او الثنائية المتطورة أي التعارض بين المادة Prakriti وبورشا Pursha يوغا Yoga او التأمل المنظم. يرى بعض الباحثين ان كنمة «اليوغا» سنسكريتيه تعني «الاتحاد» وليس «النير». وتطلق على الحياة الصوفية في الهندوسية وهي حياة يراد بها في هذه الحالة تخلص الانسان من أوهام العالم الحسي ليتحد مع روح الكون. و«اليوغا» المعروفة عند المتحمسين من الغربيين هي تطوير متأخر لهذه الممارسات المبكرة مع التركيز الشديد على أوضاع بدنية أكثر صعوبة تسمى «هاتايوجا» Hata Yaga وعلى نظرية فسيولوجية يسعى بمقتضاها اليوغي المستغرق في التأمل الى زيادة الـ «كونداليني» Kundalini وهي قوة روحية متصورة، على هيئة أفعى ترقد ساكنة في قاع النخاع الشوكي حتى الوريد الرئبي الكائن في العمود الفقري، خلال ست دوائر للقوة السيكلوجية بطول العمود حتى اللوتس في قمه الرأس. بحيث اذا أكمل اليوغي هذه الدورات فاز بالخلاص.

وكلمة «اللوتس» تعني في الاساطير القديمة نبات من يأكله يشعر بالنشوة أو الاسترخاء. وقد ورد في أوديسة هو ميروس وصف شعب من الكسالى يأكلون اللوتس، وهي هنا زهرة ذات الف بتلة (انظر، جفري يارندرا، المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجم د. إمام عبد الفتاح امام. مجلة عالم المعرفة عدد 173 ص. 165). واخيرا فيساسيكيا Vaicesika (35) أي

34 - س. رادكرشنا، نفس المصدر ص. 72

H. Zimmer - Les philosophies de l'Inde, Payot, Paris, 1913, p. 222, 248, ناقش 35 - يارندرا، نفس المصدر ص. 165. واخيرا فيساسيكيا Vaicesika (35) أي

المبادئ الاساسية لتلك المدارس وخاصة مدرسة
Garbe, Richard, Die Samkhya Philosophie, Leipzig, 1894. انظر ايضا: 248.

التعددية الواقعية. وتذهب هذه المدرسة الى ان الطبيعة مؤلفة من ذرات ازلية متميزة عن الروح، وبمعرفتها تستطيع الروح ان تحقق الانعتاق.

تتكون كلمة أوبانيشاد من ثلاثة مقاطع وهي: أوبا وتعني قريب او بالقرب (36)، وني ومعناها أسفل، وشاد وتعني يجلس. ومن المحتمل ان الجلوس بالقرب من المعلم، اشتق منه اسم مذهب الاوبانيشاد.

ويتألف أدب الاوبانيشاد من عدة نصوص نثرية، تبلغ المائتين تقريبا وظلت فترة زمنية طويلة تتلى شفاهيا، ثم وقع تدوينها بعد تاريخ الميلاد بمدة تتجاوز القرنين تقريبا. ثم اضيفت اليها عدة اوبانيشادات اخرى مثل رابندرانات تاجور الذي ألف واحدة منها سنة 1848. وسماها اليوبانيشادة البرهمية. كما الف غيره من رجال الدين أوبانيشادات فيما بين سنة 400 م وسنة 1200 م. (37) وغرضهم في ذلك هو ربط فرقهم الدينية بالفيدات باعتبار ان الاوبانيشاد القديمة هي من الحواشي لاسفار الادب الفيدي.

والشيء الجوهرى الذي استخلصه النقاد من الاوبانيشادات القديمة والحيثة منها هو: انها لا تحتوي على مذهب فلسفى منسق الاجزاء، بل تحتوي على آراء وافكار ودروس لرجال عدة، كانت الفلسفة والدين عندهم ما يزالان موضوعا واحدا (38). وقد حاول هؤلاء الرجال بهذه الآراء ان يفهموا الحقيقة البسيطة الجوهرية التي تكمن وراء كثرة الاشياء الظاهرة. الا ان هذه الملاحظة، لا تقلل من القيمة الفلسفية التي تضمنتها محاور الاوبانيشاد، بل افادتنا الدراسات العميقة لها (39) بأنها كانت بدايات ثورة فكرية روحية، متطورة نحو الوحدانية. تدرج فيها الفكر الدينى الهندوسى من الاسطورة الى فلسفة تأملية في الكائن المطلق والنفس، والعقل. وانتهت في النهاية الى اقرار هذه النتيجة وهي: ان الحقيقة الموجودة في قلب الوجود تنعكس في اعماق الروح اللانهائية. وبراهايمان (وهو المطلق عندما يكتشف موضوعيا)، هو أتمان (وهو المطلق عندما يكتشف باطنيا). تات تفام آسى (ذلك انت تكون). الحقيقة هي فينا. «عندما تحقق الروح الكونية فينا، ماذا يمكن ان يخاف أي شخص او يعبد ومتى؟» (40).

وهذه بعض النماذج (41) من الاوبانيشادات توضح لنا بعض المبادئ الاساسية والتعاليم التي تضمنتها مدارس الاوبانيشاد المتعددة واهمها عشرة:

-
- 36 - ول ديبرانت نفس المصدر ص. 43.
- 37 - د. محمد جابر عبد العال الجيني، في العقائد والاديان مصر 1971، ص 107.
- 38 - انظر F. Tomlin نفس المصدر ص. 165.
- 39 - انظرا مثلا H. Zimmer نفس المصدر ص 280 - 298.
- 40 - س. رادكرشنا نفس المصدر ص. 73.
- 41 - اقتبسها من كتاب الفكر الفلسفى الهندي تأليف س. سرفبالي رادكرشنا وشارلز مور ترجمة ندرة اليازجي.

- 1 - أوبانيشاد ايشا: تعالج طرائق المعرفة والعمل.
الوحدة المتناقضة والمتعالية والحالة في العالم المادي المتنوع
- 1 - يحتضن الإله ايشا كل ما يجب ان يكون
كل شيء متحرك في هذا الكون المتحرك
بإمكانك ان تفرح لهذا النبأ
لا تشته ثروة احد من الناس ابدا.
- 5 - انه يتحرك ولا يتحرك.
هو قريب وبعيد.
انه ضمن كل هذا
وخارج كل هذا.
- 10 - البعض يقولون: انه اعظم من المعرفة
والبعض يقولون: انه اعظم من اللامعرفة
هكذا سمعنا من الحكماء
الذين أوضحوه لنا.
- 2 - أوبانيشاد كيتا، تبحث في براهمان، اي النفس الكونية الشاملة التي
تقف وراء وظائف وأعمال الكون، هذه القوة التي هي خارجية في الطبيعة
وداخلية في الانسان.
- سؤال: ما هو العامل الحقيقي في هذا الفرد؟
- 1 - من يحث العقل عندما يحلق غالبا في فكره؟
من يأمر اول تنفس ان يستمر؟
من بحث على الكلام الذي يتكلمه الإنسان؟
العين؟، الاذن؟ من هو الاله الذي دبره؟
جواب: براهمان، الوسيط الذي يتعذر علينا فهمه، هو الذي يدبر كل
شيء.
- 2 - هو السمع في الاذن، والفكر في العقل.
وصدى الكلام، ولهات التنفس
ونظر العين. عندما يتخلص من الكون.
ويرحل من هذا العالم، يصبح خالدا.
- 3 - أوبانيشاد كانا: تبحث مشكلة خلود الروح.

قصة ناسيكتاس:

- المعرفة التي تفضل على اعظم الملذات الارضية ناسيكتاس:
- 20 - هذا الشك الذي يخيم على العقل عندما يموت الانسان:
وانه يوجد ويبقى يقول البعض: «انه يفنى» يقول الآخرون:

أريد ان اعرف سر هذا الموت، أريد ان تعلمني اياه!
هذه هي رغبتى الثالثة.

الموت:

21: الآلهة ذاتها تشك بهذا منذ القدم وفي الحقيقة، يصعب فهم هذه المسألة العويصة.

فاختر، يا ناسيكتاس، هبة أخرى. لا تشدد علي واترك هذه التي طلبتها لي.

4 - أوبانيشاد برانا: تتضمن أجوبة فلسفية عن اسئلة حول الخليقة، والشخصية الانسانية والمبدأ الميتافيزيقي في الانسان.

الروح العليا، هي القاعدة السامية للعالم المتنوع والفرد.

8 - الارض وعناصرها، المياه وعناصرها، الحرارة وعناصرها، الريح وعناصرها الفراغ وعناصره، النظر وما يمكن ان يرى، السمع وما يمكن ان يسمع، الشم وما يمكن ان يشم، الذوق وما يمكن ان يذاق، الجلد وما يمكن ان يلمس، الكلام وما يمكن ان يقال، اليد وما يمكن ان يؤخذ فيها، عضو التناسل وما يمكن ان يتمتع به، الشرج وما يمكن ان يفرز، القدمان وما يمكن ان يسار عليه، العقل وما يمكن ادراكه، الذكاء وما يمكن تمثيله، الانانية وما يمكن ان يتصل «بي» الفكر وما يمكن ان يفكر به، اللمعان وما يمكن ان يضاء، نفس الحياة وما يمكن ان يسند.

5 - أوبانيشاد موندكا: تبحث ايضا في معرفة براهمان وطريقة اتحاد الاتمان به. وتعني كلمة موندكا «الخالق». عقيدة براهمان - آتمان.

1 - هذه هي الحقيقة:

مثلا يتطاير الشرر بأشكال متشابهة، من نار تلتهب بشدة، هكذا تنتج الكائنات المتنوعة وتحيا من الذي لا يفنى.

2 - الشخص سماوي ولا شكل له

انه غير مولود، في الخارج والداخل،

لا يتنفس، بدون عقل، نقي.

أعلى من العالي هو الذي لا يفنى.

3 - منه ينبعث التنفس،

العقل وكل الحواس،

الفراغ، الريح، النور، الماء

والهواء... انه ساند الكل.

4 - النار رأسه، القمر والشمس عيناه،

واذناه مناطق الفراغ، وصوته الفيدا الموحى بها،

والريح لهاته، وفؤاده العالم بأجمعه. ومن قدميه خرجت الارض حقا انه الروح الداخلية لكل الاشياء (آتمان).

5 - منه تنطلق النار، ومحروقاتها هي الشمس،
ومن القمر ينطلق المطر، ومن الارض الأعشاب. والذكر يسكب البذرة في
الأنثى.

مخلوقات عديدة تنتج عن الشخص.
6 - أوبانيشاد موندوكيا: سميت هذه الأوبانيشاد باسم مؤسسها
الحكيم ماندوكيا. يعالج مضمونها المراحل الأربعة للوعي الانساني في
علاقته بالمقطع أوم وهي: اليقظة والحلم والنوم العميق وتوريا، والمرحلة
الرابعة هي لوحدها حقيقية.
الرمزية السحرية لمقطع «أوم».
الذي يصور مراحل الوعي الاربع

1 - أوم هذا المقطع هو العالم كله. وشرحه بكامله هو:
الماضي والحاضر والمستقبل، كل شيء هو الكلمة أوم. وكل شيء آخر يقال
ثلاث مرات، ذلك ايضا هو الكلمة أوم.
2 - في الحقيقة، كل شيء هنا هو براهمان. هذه الروح هي براهمان،
وهذه الروح لها اربعة ارباع.
3 - حالة اليقظة، حالة المعرفة الخارجية، لها سبعة اطراف وتسعة عشر
فما، وتشمل الكل، ومشاركة بين جميع الناس، هي الربع الاول.
4 - حالة الحلم، حالة المعرفة الداخلية، لها سبعة اطراف، وتسعة عشرة
فما، تشمل كل شيء جميل ومشرق، وهي الربع الثاني.
5 - يكون النائم في نوم عميق عندما لا يرغب بشيء اولا يرى حلما. حالة
النوم العميق، ممتدة، كتلة معرفة، تشمل الغبطة، فمها هو الفكر، حالة
المعرفة هذه هي الربع الثالث.
6 - هذا هو رب الجميع، الكلي المعرفة. هذا هو الضابط الداخلي هذا هو
ينبوع الكل، لانه بداية ونهاية الكائنات.

7 - أوبانيشاد تايتربا: الدعوة للتحلي بالفضائل الاخلاقية. وهي تبدو
بشكل حوار بين المعلم وتلامذته، ويدعى هذا الحوار في بعض الاحيان
«خطاب الاجتماع» وتشتهر هذه الأوبانيشاد بقصيدتها «الاعمام الخمسة»
للروح وهي: في الطعام، والتنفس، والعقل، والذكاء والغبطة. وقد سميت بهذا
الاسم لانها جزء من تابتربا آرانياكا.

العالم والانسان في تنوعاته الخمسة:

الارض	الجو	السماء	انحاء السماء	الانحاء الوسطى
النار	الرياح	الشمس	القمر	النجوم
الماء	النباتات	الاشجار	الفراغ	جسد الانسان

- هذا ما يتعلق بالوجود المادي.
وترينا اللائحة التالية ما يتعلق بروحنا:

برانيا	فيانا	ابيانا	اوديانا	ساميانا
التنفس	التنفس	التنفس	التنفس	التنفس
النظر	السمع	العقل	الكلام	اللمس
الجلد	اللحم	العضلات	العظم	نخاع العظم

نصائح عملية الى تلميذ:

1 - بعد ان يعلم المعلم التلميذ، يرشده ايضا:
تكلم الصدق.

مارس الفضيلة (وهارما).

لا تهمل دراسة الفيدا.

يجب ان لا يهمل الانسان الحقيقة.

يجب ان لا يهمل الانسان الفضيلة

يجب ان لا يهمل الانسان الازدهار

يجب ان لا يهمل الانسان التقدم

2 - يجب ان لا يهمل الانسان التعلم والتعليم

يجب ان لا يهمل الانسان واجباته نحو الآلهة والآباء.

كن كمن تكون أمه الهة

كن كمن يكون والدها

كن كمن يكون معلمه

كن كمن يكون ضيفه الهة

هذه الاعمال التي لا شر فيها يجب ان تعمل هي لا غيرها.

هذه الاعمال التي نعتبرها جيدة يجب ان تحترمها.

8 - أوبانيشاد انتاريا: وهي جزء من انتاريا أرنياكا الكبيرة يعالج
مضمونها فكرة الحياة بعد الموت.

وتشتهر هذه الاوبانيشاد بعقيدتها في آتمان الذي يمثل الذكاء.

الخلق:

1 - في البدء كان آتمان (الروح) هنا ولم يوجد كائن سواه. فكر لنفسه
وقال: «دعني اخلق العوالم».

- 2 - خلق هذه العوالم: الماء وأشعة النور والموت والحياة...
3 - فكر لنفسه ثانية: «لقد وجدت العوالم، لاخلقن الآن حراس العالم ومن المياه أخذ وشكل شخصا.

الروح العالية:

- 1 - سؤال: من هو هذا الواحد؟
جواب: اننا نعبد كالروح.
سؤال: أي واحد هو الروح؟
جواب: هو الذي به نسمع ونرى ونشم الروائح وبه نلفظ الكلام ونميز بين العذب وغير العذب.
2 - ذلك هو العقل والقلب، هو الوجدان والرعي وقواه التمييز والذكاء والحكمة والبصيرة والثبات والفكر والتعقل والدافع والذاكرة والتصور والهدف والحياة والرغبة والارادة.
هذه كلها تسميات للذكاء (براجنيانا).
3 - هو براهمان، هو اندرا، هو براجاباتي، هو كل هذه الآلهة، هو هذه العناصر: الأرض والرياح والفضاء والماء والنور، هذه الاشياء وتلك التي تمتزج بالنار كما كانت، أصول جميع الأشياء، وتلك التي تولد من بيضة او من رحم او من فرخ، الاحصنة والابقار والفيلة، والاشخاص، كل ما يوجد هنا، ان كان متحركا او طائرا او مستقرا.
كل هذه الاشياء يقودها الذكاء وتقوم عليه. العالم يقوده الذكاء. الاساس هو الذكاء. وبراهمان هو الذكاء.
9 - اوبانيشاد شانودجيا: وهي إحدى أقدم وأشهر الاوبانيشاد. يظهر فيها ان حالة البراهميين تتحدد بالأخلاق وليس بالولادة. ومركز التعاليم في الاوبانيشاد دائما يراه الفيلسوف آروني هو العقيدة الاساسية بهوية آتمان، وهي المعتقد النفسي، وبراهمان هو المبدأ العام للطبيعة.
أخذ اسم هذه الاوبانيشاد من الكلمة شاندا التي تعني المتر، وهي تسمى هكذا لانه يمكن ان تسرد بالطريقة المترية...
1 - أوم ليقامل الانسان في هذا المقطع (اودجيتا، اغنية عالية) ويغنيها المغني مبتدئا بكلمة اوم.
2 - جوهر الاشياء هنا على الارض.
وجوهر الارض هو الماء.
وجوهر الماء هو النبات
وجوهر النبات هو شخص (بوروث)
وجوهر شخص بوروث هو الكلام.

وجوهر الكلام هورج (انشودة).
وجوهر رج هوسامان (اغنية)
وجوهر سامان هوردجيتا (غناء عال).

البيضة الكونية:

- 1 - الشمس هي براهمان - هذا ما نعلمه. وانا نوضح هذا التعليم كما يلي:
في البدء كان هذا العالم لا وجودا. تطور. تحول الى بيضة. وظلت هكذا لفترة سنة. وانشطرت. واصبح احد الشطرين ذهباً والآخر فضة.
- 2 - الارض هي الشطر الفضي. والفضاء هو الذهبي. والقشرة الخارجية هي الجبال. والقسم الداخلي هو الغيم والضباب، والعروق هي الانهار، والسائل في الداخل هو المحيط.
- 3 - وما ولد من هطا هو الشمس. وعندما ولدت صعدت اليها هتافات من الكائنات. هكذا تصاعدت الهتافات لدى شروقها.
- 4 - من يعرف هذا يحترم الشمس مثل براهمان والمهم هو ان تتصاعد اليه الهتافات لكي يبتهج - نعم أبهجوه.
- 10 - اوبانيشاد برهادارانياكا: وهي اشهر واقدم واطول اوبانيشاد ويعني الاسم كتاب الغابة العظيم. وهي تشتمل على حوار بين الفيلسوف ياجنيا فالكيا، الذي يعتبر اكبر حكماء الاوبانيشاد وزوجته مايترى. واشتهرت هذه الاوبانيشاد بفكرة «ناتي، ناتي» «لا هذا ولا هذا» وهي العقيدة الصوفية التي تقر بعدم امكانية وصف المطلق.

خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة

- 1 - في البدء كان هذا العالم هو الروح لوحدها في شكل الشخص. وإذا التفتت حولها لم تجد شيئاً آخر سواها. قال أولاً: «أنا أكون». وعندئذ وجد إسم «أنا». وحتى اليوم، عندما يتكلم شخص يقول أولاً: «هوانا».
- 2 - كان الشخص خائفاً. ومن يكن لوحده يخاف. عندئذ فكر هذا الواحد لنفسه: «إذ لا يوجد شيء سواي مما أخاف؟ وهكذا انقضى خوفه. إن الخوف لا ينشأ إلا من وجود شخص آخر.
- 5 - «أنا، حقاً، هذه الخليقة لأنني بعثتها من نفسي» «لقد عرف هذا.. ومن ذلك الحين وجدت الخليقة.
- 7 - كان العالم عندئذ غير مميز، فأصبح مميزاً بالاسم وبالشكل. وكما يقول المثل: «له اسم كذا، وشكل كذا»:

محادثة يا جنيا فالكيا وما يتريي فيما يتعلق بالروح الحالة في كل الاشياء

- 1 - «يا مايتريي» قال يا جنيا فالكيا: «اني اكاد ان ارحل عن هذه الولاية. دعيني اقدم حسابي الاخير لك ولكاتيا ياني».
- 2 - عندئذ قالت مايتريي: لو كانت هذه الارض كلها ملأى بالذهب وتخصني، هل اكون خالدة؟ «كلآ» قال يا جنيا فالكيا: «ولو كانت حياتك حياة غني، لكن الخلود لا يشتري بالثروة».
- 3 - عندئذ قالت ما يتريي: «ماذا يجب ان اعمل بكل شيء لا يجعلني خالدة؟
ما تعرفه ياسيدي، اخبرني اياه».
- 4 - عندئذ قال يا جنيا فالكيا: «بما انك عزيزة علي، وعزيز ما تقولينه، تعالي واجلسي، سأوفر الامر لك. ولكن، وانا اشرح لك، تأملي في ما أقول».
- 5 - وقال: لا يحب الزوج بسبب الحب الذي يوجه للزوج بل بالحب الذي يوجه للروح».
- «لا تحب الزوجة بسبب الحب الذي يوجه للزوجة بل بالحب الذي يوجه للروح».
- «لا تحب الثروة بسبب الحب الذي يوجه للثروة بل بالحب الذي يوجه للروح» «لا يحب الأبناء بسبب الحب الذي يوجه للأبناء بل بسبب الحب الذي يوجه للروح».
- «لا تحب العوالم بسبب الحب الذي يوجه للعوالم بل بسبب الحب الذي يوجه للروح».
- «لا تحب الآلهة بسبب الحب الذي يوجه للآلهة بل بسبب الحب الذي يوجه للروح».
- «لا تحب الكل بسبب الحب الذي يوجه للكل بل بسبب الحب الذي يوجه للروح».
- «هي الروح (آتمان) التي يجب ان ترى، وان يصغى لها، وان نفكر فيها، ونتأمل فيها، يا مايتريي. بالاصغاء الى الروح في رؤياها، بالتفكير بها وفي فهمها ندرك العالم كله».